بايع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه.

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه.

وقد تواترت الصحابة فى عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويكبر فى أعين الناس أكبر من تقال فيه. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوه راجحة، وألسنة صادقة، وعقيدة راسخة، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق فى إنسان. ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل. لأن شهادة الواقع هى الشهادة التى يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع. وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور. أما الشهادة التى تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهى قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس: إنكارها كإنكار المحسوس الذى تقع عليه الأيدى ولا تغمض عنه العيون.

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبى بسلام.

ولكن انتهاءها بسلام يعنى أنها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أية حال، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التى يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة. إذ لحقيقة أن انتهاءها على هذا النحوَ قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ، مع ما يحيط بها من دواعى النزاع ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق.

فما هو إلا أن لحق النبى بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعى النزاع من كل فج، وتكشف كوامن القلق والخوف من كل مكمن، وجهل أعلم الناس كيف تتجلى الغاشية ويستق القرار.

فالأنصار يقولون أنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة، ولأنهم فى ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعًا عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والايواء.

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوى فى الخلافة النبوية، وبين آله رجلان قويان هما على والعباس، لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمحضت عن خطب عظيم.

وكأن هذه العصبيات لم تكف دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها فى قريش، فدخل على على والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة، ويهب بعلى باسمه، ثم بالعباس باسمه: "يا على! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها؟ والله لو شئت لأملانها عليه - يعنى أبا بكر - خيلا ورجلا وآخذتها عليه من أقطارها[1] فيجيبه على بما هو أهله: "لا والله أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا: ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها"، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنب أب سفيان من طرف خفى على سعيه فى هذه العصبية فيقول: يا ابن سفيان! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض، متخاونون وان اقتربت ديارهم وأبدانهم!".

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغبون، وكما هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير[2] من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون، فهم إن لم يفسدوا فى الأرض لا يصلحون.

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مسألة الخلافة بسلام فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب. وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر

---

(١) الرحيل جمع راجل، وقوله "لآخذتها عليه من أقطارها "تهديد بأنه سينازله من كل ناحية. وصوب.

(٢) شفير كل شيء: حرفة.

فيغنيك فيها أن تذكر اسمًا واحدًا عمر بن الخطاب. . إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف فى وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب. فما عرف رأى عمر فى البيعة حتى بطل إلا مالا خطر له. وطمأن من يوافق، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه، واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أوشكت أن تكون كلمات.

قال أبو بكر لعمر: ابسط يدك نبايع لك.

قال عمر: أنت أفضل منى. فقال أبو بكر: أنت أقوى منى.

قال عمر: إن قوتى مع فضلك. لا ينبغى لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثانى اثنين، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق الناس بهذا الأمر. ووثب عمر فأخذ بيد أبى بكر، فتوائب الجميع من عليه الصحابة يبتدرون البيعة ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس: "إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثانيا اثنين إذ هما فى الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا".

فكانت البيعة العامة، وتركت شجرة الخلاف لجفاف، فإن لم تذبل لساعتها فهى وشيكة ذبول.

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

وذلك قدر عمر عند الصحابة، وقدره عند أبى بكر، وقدره عند الله، تغنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام.

وفى تلك الكلمات الموجزات التى تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين، وحكم التاريخ فى أبى بكر وعمر، وفى موقف الخلافة من بدايته إلى منتهاه.

قال عمر: إنك أفضل منى. وقال أبو بكر: إنك أقوى منى.

وقال عمر: إن قوتى لك مع فضلك.

صدقا غاية الصدق، وجاملا غاية المجاملة، وقضيا بالعدل والحكمة والإخاء، وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب، ثم لا يزيد فى فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات.

ولقد كانت من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر فى خلافته حتى يرجع عن رايه، وكان من فضل أبى بكر أنهم يسألونه متثيرين: والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول: هو لو كان شاء! وكان فضل أبى بكر وقوة عمر جمعًا لا يشذ عنه مكابر، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه.

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأى جميع لا خلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة، ويتجهان إلى غرض واحد، فهما غير متفرقين إلى أمد طويل.

وأعجوبة الأعاجيب في هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معًا بعد موت النبى بأيام قلائل، وهى مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون.

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر فى مشكلة كبيرة أو صغيرة، وإنما العجب هو نوع هذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد. فيحالف أبو بكر لأنه ينجح إلى الشدة والصلابة، ويخالف عمر لأنه يجنح إلى اللين والهوادة، ثم يلتقيان ولا يتعارضان.

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًا على قوله: "والله لو منعونى عناقًا[1] لقاتلتهم على منعها".

---

(١) عناق: معزة.

وعمر يقول له: "كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وما له إلا بحقه، وحسابه على الله!".

ويشارك عمر فى رأيه جلة الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى "إنه أمين الأمة"، وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى "إن سالمًا شديد الحب لله"، وأناس من هذه الطبقة فى صحابة الرسول.

ويعود أبو بكر فيقول: "إن الزكاة حق المال؟ وفيها نحارب بالحق. ثم يهيب بعمر. رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك؟ أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام؟ فإذا بعمر يثوب إلى شدته بعد أن أفزع أمانة الرأى كما قال: "ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق"، وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريده أن يراه ولا يغمض عينيه. أرجلان هنا مختلفتان أم رجل واحد؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان. ما دمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التى لا تفارقهما، وطالما جمعت العقيدة جيوشًا على قلب واحد، فضلا عن رجلين.

وإنما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان فى المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضة بحال، فأما أن يكون لها وجه آخر يبديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتًا فى موقف البحث والمشاورة، وهو الناصح الأمين.

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذى رآه أبو بكر رضى الله عنه، وكان عمر خليقًا أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق آرائه فى الحرب والسياسة فقد كان بطيئًا إلى الحرب كما عرفنا من عامة وصاياه، وكان أبطأ ما يكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين، وكان جيش الإسلام بعيدًا عن

المدينة فى غزوة الروم ا التى بـها أسامة بن زيد بعـد قيام أبى بكر بالخـلافة، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف، أو هو فى أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول.

وقد كـان من عادة عـمر أن يطيع صاحب التبعـة متى وجبت الطاعة واستقر القرار، فلا ضير إذن ألا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأى على اختلافها، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع.

ومثل هذا الرجل، معارضته قوة فوق وخير لا ضير فيه.

وخليق بنا أن نفهمـهما على صوابها فى مسـألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهـودة وليست من فلتات الضعف فيه، لأنه رأى الرأى فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته، جريئًا فيما رآه.

وعلى هذا الدأب ظل قوة لأبى بكر بموافـقته ومعارضـته على السواء. وأصاب فيما قال له يـوم بايعه: "إن قوتى لك مع فضلك"، فكسب الإسلام خليفتين معًا بتقديم أبى بكر للخلافة لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأربًا غير خدمة الإسلام.

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا مالا خطر فيه.

عرضها عليـه أبو بكر فقال: لا حاجة لى فيـها، فقال أبو بكر "ولكن لها بك حادة يا ابن الخطاب".. وسأل خيرة أصحابه؛فقال له عبد الرحمن بن عوف: هو الله أفضل من رأيك فيه، وقال عثـمان بن عفان: إن سريرته خير من علانيته، وإنه ليس فينا مثله، وسأل أسيد بن الحضير فقال: "اللهم أعلمه الخيـر بعدك. يرضى للرضـى ويسخط للسـخط، والذى يسر خيـر من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عيه منه".

وأجمع المهـاجرون والأنصـار على تزكيـة عمر وتصـويب أبى بكر فى ترشيحـه. ولعلهم لم يذكروا من مناقبه إلا ما هو عليـه به أعلم وأخبر، فلم

يزده ثناء المثنى علما بصاحبه! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه، لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب فى حزمة وصدقة لن يخلو من مبغض، ولن يبغضه أحد لما يعيبه وبين ولاية أمر المسلمين.

قال له وهو يعرض عليه الخلافة: "يا عمر! أبغضك مبغض وأحبك محب. وقدمًا يبغض الخير ويحب الشر".

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له: "انك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته، فكيف وهو خليفة؟ وما أنت قائل لربك إذ سألك عن استخلافه علينا؟"

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس، فقال لمن خوفه الله وعمر: "أبا لله تخوفوننى؟ خاف من تزود من أمركم بظلم. أقول: اللهم قد استخلفت على أهلك خير أهلك!"

ولو شاء أبو بكر لقال أن ما خوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التى قدمته عنده على غيره، فقد خاف عليهم الفتنة، وكان أكبر حذره أن تجىء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام[1] وليس هؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقونه الفتنة باتقائه، فمن هنا وصاه فحذره "هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قد انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل أمرىء منهم لنفسه" وقل له: "إن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك".

فالذين حذروه عمر إنما رغبوه ولم يحذروه منه، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه، فكانت سيئته عندهم أبى بكر، ورجاء فى صلاح أمر الأعلام والطغام.

(١) الطغام: جمع طغامة وهو الوغد.

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته، وأبرأ إلى الله ذمته، ودعا بعثمان فأملى عليه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها، حتى يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب: إنى استخلفت عليكم بعدى. . . "

ثم أخذته غشية فكتب عثمان "عمر بن الخطاب"، ولم يترك الكتاب خلوا من الاسم مخالفة أن يذهب الموت بأبى بكر فى تلك الغشية فيلج من يلج بالخلاف، وله شبهة يحوم عليها.

وإنه ليكتبها إذا أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب، فكبر وأدرك ما وقع فى روعه فحياه ودعا له: "جزاك الله عن الإسلام خيرًا: والله إن كنت لها لأهلا(١)". ثم أتم الكتاب.

ثم بويع عمر بالخلافة بإجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده إلا أن تكون وراثة فى دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان فكانت شهادة من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب: بالبديهية التى لا تكذب فى صادق ولا كذوب.

وجائز جدًا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه، وأن يختمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف، إذ الحكم يخلق العدوات، ويفتق أسباب التباعد فى الظنون والآراء، ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد. فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون، والمتفقون على خمده يزيدون، ثم هم يزيدهم فى خمدهم إياه وثنائهم عليه.

ودخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال، فجاء ابن

(١) أى: إنك كنت أهلا لها.

لعثمان فأخذ شيئًا من فضة ومضى به، فبكى زياد.. قال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت أمير المؤمنين[1] بمثل ما أتينك به فجاء ابن له فأخذ درهمًا فأمر أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وأن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ، فلم أر أحدًا قال له شيئًا.. قال عثمان: "إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله. ولن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمرا".

وبكى على يوم موته فسئل فى بكائه فقال: "أبكى على موت عمر إن موت عمر ثلمة[2] فى الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة" وقال عبد الله بن مسعود: "كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة".

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء: "أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأردته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهر لبطن:. وقال عمرو ابن العاص وهو يحدث نفسه: "لله در ابن حنتمة!.. أى امرئ كان!".

ولم يقبل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناء كهذا الثناء، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل فى إنصاف بنى الإنسان.

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره.. إلا أنه كان مفضلا فى هذاه كما كان مفضلا فى جميع محامده وحسناته، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها، وقليل منهم من كان قادرًا أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال.

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمرًا ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبى وأحاديثه.

---

(١) يعنى عمر بن الخطاب.

(٢) الثلمة: الخلل، ورتق الثلمة: إصلاحها.

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعًا له فجنبهم ولاية أعمال قائلا لمن راجعه فى ذلك: "أكره أن أدنسهم بالعمل[١] "فسبق الدساتير العصرية بحسن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره. هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان.

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رءوس القبائل وقروم[٢] الجزيرة العربية. فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى بيع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين[٣] وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران، ولكنهما شهدا بدراً وصحبا رسول الله، فأذن لهما قبل عليه القوم! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟ أما صاحبه فكان حكيما فقال: أيها القوم! إنى والله أرى الذى فى وجوهكم.. إن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم. ودعى القوم - إلى الإسلام - ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا بوم القيامة وتركتم؟".

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال، لا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل.

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذى يعطى كل ذى قدر قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير. فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين.

فلما ندب الناس إلى غزو العراق فبادر إليه فبادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار. وأجاب من راجعوه قائلا: "لا

(١) يعنى بالعمل هنا الولاية والحكم، أما العمل للإنتاج فقد سبق أن عرفنا رأى عمر فيه.

(٢) القروم: جمع قرم وهو السيد. (٣) أى: ليس لهم مثيل بين السادة والكبراء.

والله! لا أفعل. إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو. فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا".

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما "إنكما لو سبقتما لوليتكما.." والتفت إلى أمير الجيش الذى اختاره فقال له: "اسمع من أصحاب النبى ﷺ، وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب". هذا ما استحقوه، فلا رجحان لهم إلا بالحق، ولا رجحان عليهم إلا للحق.

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء، وحتى الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها. فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم. فربما حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها إلا بإذن وإلى أجل، مخافة منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس. ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجبًا بسابق بلائه مع رسول الله ﷺ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يزوده بها عن السفر، ويقول له: "إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك، ويحسبك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن أخيرًا لك ألا ترى لا تراك".

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين، فهو القسطاس الذى لا يجوز، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين. فلكل رجل ولكل عمله حقه، ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفع أحدًا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله. فلكل عمل وله حساب، وكل قدر وله كرامة، وأكبر الصحافة خليق أن ينزل منزلة المرءوسين

لمن سبقهم إلى العمل النافع. وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن إذا استحقه، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يفارقه الحاكم لظلم أو لخوف، وليس لهذا ولا ذاك سبيل إلى عمر. لأنه عادل، ولأنه لا يخاف، وإذا وقع ما يخافه غير ضليع بالتبعات(١).

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نلتمس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل، وقل فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين.

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحافة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة(٢) كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه.

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذًا عن خطته مع جميع القادة والولاة، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرًا أن يصنعه، سواء كان القائد خالدًا أو كان رجلا غيره... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف، أن ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين، وتنظر إليهم بنظرتين مختلفتين.

عزل عمر خالدًا وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لا بد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر ابن الخطاب. هو على قدر عزله بلا مراء، وهو قدر كبير.

فقال أناس إنها منافسة الند للند للشبيه، وقال أناس عزله لغير خطأ

---

(١) ضليع بالتبعات: قدير عليها.

(٢) الحادمة: يقال: حدمته الشمس أو النار: أى: اشتد حرها عليه واحتدمت النار أى اشتد حرها ومنه: احتدمت المناقشة.

أتاه، وقال أناس إنها ترة[1] قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده.

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور وتخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهو خلق وخلق توحى الظن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهو يحسبونه خالد بن الوليد.

فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم "أنه لم يعزله لسخطه ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به" . . قال: "فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا، فأجبت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة" . ولما سأله خالد فى ذلك قال له: "إن الناس افتتنوا أن تفتن بالناس" .

فمن شاء أن يخيط بالظن هنا فقد نحيط ما شاء وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالداً بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة، وأن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ما أخذه عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين.

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه إلى أيام النبى عليه السلام، وبعضه إلى أيام أبى بكر رضى الله عنه، وبعضه إلى أيامه، وكله مما يصح أن يؤخذ به فى موقف الحساب، وإن كان الذى حدث فى أيام عمر وحدها كافياً لما قضاه فى أمره.

---

(١) الترة: الثأر.

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالدًا عن القتل والقتال وقال له وللزبير: "لا تقاتلا إلا من قاتلكما". ولكن خالدًا قاتل وقتل نيفًا وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكتاب: من قتلها؟ قال: خالد بن الوليد. فأكره أن يدرك خالدًا فينهاه أن يقتل امرأة أو وليدًا أو عسيفًا - أى أجيرًا - وبعث إليه من يسأله: ما حملك على القتال؟ فاعتذر بخطأ الرسول فى تبليغه. وشهد الرسول[1] على نفسه بالخطأ فكف عنه:

ثم بعث رسول الله خالدًا إلى بنى جذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه للقتال، وأمره ألا يقاتل أحدًا إن رأى مسجدًا أو سمع أذنًا، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا. فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، وأفلت من القوم غلام يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا إليه. فسأله رسول الله: هل أنكر عليه أحد ما صنع؟ قال: نعم. رجل أصفر ربعة[2] ورجل أحمر طويل. وكان عمر حاضرًا فقال والله يا رسول الله أعرفهما. أما الأول فهو ابنى، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالدًا أمر كل من أسر أسيرًا أن يضرب عنقه، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما.. فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال: "اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد".. ثم دعا على بن أبى طالب وأمره أن يقصد إلى القوم معه إبل وورق[3]، فودى[4] لهم الدماء وعوضهم من الأموال.

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وجة خالدًا أهل الردة يدعوهم إلى

---

(١) يعنى الرسول الذى حمل رسالة النبى عليه السلام إليه.

(٢) ربعة: معتدل الجسم. (٣) الورق: بكسر الراء، المال من الدراهم.

(٤) ودى: أعطاهم الدية وهى المال يعطى لأهل القتيل بدل النفس.

أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليها. فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة ولم يأمر الخليفة بالمسير إليه. وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه، وقال خالد: قد عهد إلى أن أمضى وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب مما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته لم أعلمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكرههم.. ".

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم، يشهد قوم أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شىء. فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة، وأرسل فيما قيل مناديًا ينادى: أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد قتلهم.. لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل فى لغتهم.

ويروى أن مالكًا قال لخالد: ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا، فلم يجبه خالد إلى طلبته وقال له: لا أقالنى الله أن أقتلك، وتقدم إلى ضرار ابن الأزور بضرب عنقه. وتزويج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره.

وقد بلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبى بكر: إن سيف خالد رهق[1]. فاعتذر له أبو بكر بأنه "تأول فأخطأ" وودى مالكًا واستدعى خالدًا إليه.

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفى عمامته أسهم غرزها للمباهاة، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له: قتلت أمرًا مسلمًا ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك!

وكان أبو بكر رضى الله عنه هم بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال

(١) الرهق: الظلم والسفه والطغيان.

الذى فى ولايته فسأل عمر: من يجزئ جزاء خالد؟[1] فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك، وتجهز عمر حتى أتيح الظهر فى الدار، لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه، وأن يبقى خالداً فى ولايته لحاجته إليه، فعمل بما أشاروا.

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر. فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب وقال فيه: "غما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك بعملك" فلم يطقها عمر وقال: "ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه".

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، ونمى لأمر إليه كما كانت تنمى إليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده. فكتب إلى أبى عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة "فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف".

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدأ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر، ونزع منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله. فقومت عروضه وضم ما زاد منها إلى بيت المال، وقال له عمر يومئذ: "يا خالد! والله إنك على لكريم، وإنك إلى لحبيب، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء".

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه، والأرجح أن فى تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير، فكتب عن عزل خالد فى اختبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره فى أخبار السنة السابعة عشرة، وأورد فى الموضعين أقوالا متشابهات.

---

(١) يعنى: من يقوم مقامه ويكون فى مثل كفايته؟

تلك جملة المآخذ التى أخذها على خالد من عهد النبى عليه السلام إلى عهد خلافته، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوح له أنه أنكر من خالد شيئًا كان يقبله من غيره، وأنه نصب له ميزانًا غير الموازين بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول. فرأى عمر فى إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانت على البعد منه، كما حدث من ابنه فى بعثة جذيمة أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف، ثم أنكر النبى عليه السلام ما أنكراهما استصوباه.

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال ويوصى قواده جميعًا بالتريث فيه، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجل بالقتال كما قال لسليط بن قيس: لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث".

وكان يتحرج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه، وتقدم فى هذا الكتاب أنه لام أناسًا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه، وقال لهم: "هلا ستنتموه وحبستموه؟ وتبين من رأيه فى أهل الردة أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال. فإن كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه، فإنكاره لمقتل مالك ابن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته[1]، ووقوع البناء بها فى أثناء المعركة، وهو أمر لا ينفرد عمر بكراهته وانتقاده، بل تكرهه العرب عامة، مسلمين وغير مسلمين.

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب: يكتب عروضهم[2] قبل ولايتهم، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارًا لينكشف ما عادوا به إليهم، ويقاسمهم كل درهم

(١) البناء بالمرأة: الزواج منها. (٢) العروض: الأمتعة.

يربى[1] على المحسوب من أرزاقهم. ويجرى على هذه ألسنة مع كل وال وكل عامل ذى أمانة. فلم يستثن منها أحداً قط، ولم يعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير.

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر "سرعة هجماته وشدة صدماته" سنة عمرية لا شذوذ فيها، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة، لأنه لا يحابى ولا يفرق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير. وليس يحب أن يقال أن رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الإسلام، فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطر على الإسلام من عزل وال مظلوم أو ولاة مظلومين.

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل فى محاسبة العمال، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ننا نسميه نحن فى أيا منا "بالسياسة العليا".

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا فى فهمنها وتأويلها على ما نراه، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل.

فكان يرعى فى شئون الولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة.

أحد هذين الأمرين أن يفتن بهم الناس فيفتنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله. والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يلى أحسن البلاء ولم تتساير بذكره الأنباء، فليس لهذا خطر فى بقائه كخطر القائد الكبير.

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليًا دون قائدًا دون قائد.

---

(١) يربى: يزيد.

فلم عزل زياد أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد: لم عزلتنى يا أمير المؤمنين؟ العجز أم خيانة؟ فقال له: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. وقديمًا قال فيه عمر: لو كان قريشًا لساق العرب بعصاه فالحيطة منه وفاق رأيه فيه.

وقد كان من خلق عمر أ، يقدم الحذر ويأخذ الحيطة ويطيل الروية، ثم يجزم بالرأى السديد فى غير إبطاء، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله لأنه رجل فخور يحمل امرأة على المغالبة والتعصب.. فعزله أبو بكر كما أشار.

فإذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المآخذ التى أنكرها. على خالد فلا جناح عليه، ولا محل للشك والظنة فى أسباب عزله.

لقد رأى زهو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام ويسبق أنداده من القواد: رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفى عمامته السهام. ورآه يوم استقل بيت المال فى ولايته على عهد أبى بكر وعلى عهد، ورآه فى أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها، ورآه ولا يلمس ومما يقدر ولا ينتظر: "فإذا أشفق أن يفتن بالناس كما افتنوا به فلا جناح عليه".

وثانى الأمرين اللذين يدخلان فى تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل فى غير جريرة ظاهرة أن يصبح القائد ضرر لا غنى عنها لتيسير الجيوش وفتح الفتوح، وأن يعزى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دنه، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله، ويخسر الجيش بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير.

فإن كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقواده فى كل ميدان فلا

خسارة بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد. وإذا حان اليوم الذى ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينتفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير.

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شىء فيه على صواب: تعزوه إلى إيمانه بالله فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى حسن فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى تقديره للواقع فهو مصيب. فكل أولئك كان خليقًا أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء. وألا يزال بالناس بذكرهم ما ذكرهم به حين كتب إلى الأنصار بعد عزله خالداً "إن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة".

ولو أن رئيسًا لخالد غير عمر بن الخطاب فى إيمانه المكين لما فاته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم فى جميع الميادين، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتدها بجميع ما فى يديه: تلك قوة العقيدة لا مراء، إن ضاعت فلا عوض، وإن بقيت فللقادة كثير.

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا إيمان تسليم كما يفكر سياسة وتدبير؟ لئن ذكره نسى ذلك لهو الحقيقى باللوم على نسيانه، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالداً بغير جريرة لما كان عليه من لوم. وهو كما رأينا لم نعزله لغير جريرة، أو لم يكن حسابه له مختلفًا عن حسابه للقادة والولاة. وقد كان أبو بكر نفسه - وهو من أبقى خالداً - يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال: أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد!

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح وإسناده كل فشل إلى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب إليهم يقول: "عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقتلونهم منذ سنتين. وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم".

فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مأزق الخلان وهل الخطأ؟ هل كانت منه حماسة إيمان ولم تكن روية تفكير؟ هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الإسلام لو بحث الأمر ونفذ إلى حقائق الأسباب؟ كلا. بل هو صدق الرأى وصدق الإيمان معًا مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك.

ودون هذا من أسباب "السياسة العليا" يجيز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية، ولاسيما بعد ما أخذت عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحدًا فى أمثال هذه المآخذ. فما باله يسامح خالدًا فيها؟ إنه إذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه، وأن الخطر الأكبر الذى يشخاه لقد حق على الجند وعلى الدولة، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه: أن يسكن الناس إلى التفرقة فى الحساب، وأن يألفوا ما يعاب إذ عيب من الرءوس والأقطاب، دون الأتباع والأذناب.

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدمنا أو لأى سبب غيرها. وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الإسلام.

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مورانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى، وكأنها صنعة العمر التى لا يحتمل عمر الإنسان تجديد صناعتين مثلها. فإذا قيل أن واليًا عزل فى عصرنا فكأننا نقول أن تاجرًا صودر ماله أو زارعًا حيل بينه وبين زرع أرضه. ومصادره من هذا القبيل حرى أن تلتمس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والإقناع.

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه، ول يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذى اصطلح عليه العرف وإن لم ينص عليه القانون، إنما كانت ترجبة ارتجالية يتساوى فيها من جميع الصاحين من المسلمين، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والإقناع، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين.

"لله در "ابن حنتمة"!.. أى رجل كان!"

كلمة قالها رجل يعرف الرجال. قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الإعجاب الذى لا يجدى فيه كتمان.

وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيلقيه حينما تحث عنه عسيراً جد عسر.. أى رجل كان هذا الرجل؟ أى عدل كان عدله؟ أى قسطاس كان قسطاسه؟ أى حساب كان حسابه لنفسه؟ وأى سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب.؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقل فى ذلك ما تشاء، وقل فى خلائق عمر ما تشاء.. قل هى الشدة والصرامة، أو قل هى الخشونة والصلابة، و أقل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق فى عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعصم فيه تكلف الصواب.. قل ما بدا لك من ذلك واذهب ما شئت أن تذهب فيه، فإنك لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك فى سبب انتقاد أو علة اختلاف، لأنه يزاول أمرا إلا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج.

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك، وكنا نستمع إلى الذين يردونه إلى المنافسة والتناظر فنجيز هذا ولا نمنعه، أو نرى فيه منالا من

قدر عمر ومنقصة تغض من إعجابنا بمزاياه. لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة، ويبقى له ذلك قدره الجليل وأثره الضخم فى تاريخ الإنسان.

وفى عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا قوامهم ثم بلغ من ضغنهم على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باتصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدى القضاء. ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة فبقى لأولئك الأبطال حقهم الخالد فى الثناء والتعظيم. وإذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصى عليه خطأ غير عزله لخالد وما جرى مجراه فما أكثر هذا صوابًا على الآدمى وإن كان من أعظم العظماء!

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفى خلدنا هذا الفرض الذى لا يحملنا على استبعادها، وعندنا أنه خطأ يذكر إلى جانب حسنات، فلا ضير أن يكون له موضعه فى جانب تلك الحسنات.

ثم نقرأ كل ما تسمى لنا أن نقرأه فى هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ولا تزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود، حتى نطقنا بها كما هى، وغفر الله لابن العاص.

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ نسب إلى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء. فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه، أو يضعف سنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه، إلا لمن يتجنى ويتحمل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب.

كلا. هذا رجل لا يسهل نقده، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب هو نفسه، ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه إلا على أنه اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان. فإذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ، وأن تحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب.

فالذى حصل والذى كان متوقعًا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وإنصافه فى قضية خالد بن الوليد، وقد حكم بما وجب عنده، وانتهى كل شىء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة الدولة السياسة العليا. إذ لا موضع فيها لحزازت النفوس وصغائر المنافسة وما تجره إليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام. قال خالد: لن تعتب على فى شىء بعد اليوم، ثم أمسك عن الخوض فى قضيته إلا أن تثار فى معرض عام، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار، ويقبل ما شاء له كرم الخليقة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين وان أغلظوا فى المقال، على ما كان له من هيبة ترد الجامع وتخفيف من لا يخاف.

قال من خطبته بالجابية: أنى اعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفه المهاجرين فأعطى البأس وذا الشرف وذا اللسان.

فتصد له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه: "والله ما أعذرت يا عمر. ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله ﷺ، وأغمدت سيفا سله رسول الله ﷺ، ووضعت أمرًا نصبه رسول الله ﷺ، وقطعت رحما وحسدت بنى العم.. ".

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره: "إنك قريب القرابة، حديث السن، تغضب فى ابن عمك".

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته فى أمصار المسلمين، فكتب ما المعناه إليه آنفًا يرحض عنه سمعة العجز والخيانة، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه، ولا لتثريب عليه.

وعلم بموته فاشتد حونه عليه واسترجع(١) مرارًا ونكس رأسه وهو يكثر الترحم عليه، ثم قال: كان والله سدادًا لنحور العدو ميمون النقية.

---

(١) استرجع: قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه فى عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال: "قد ثلم فى الإسلام لا ترتق". وقيل له: لم يكن هذا رأيك فيه، فلم يحجم أن يعلن قائلا: "ندمت على ما كان منى إليه".. وقال فى غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه:

"رحم الله أبا سليمان، كان على غير ما ظنناه به".

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل، فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال: "دعهن يبكين على أبى سليمان، ما لم يكن نقع أو لقلقة. على مثله تبكى البواكى.

ودخل هشام بن البخترى فى أناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشده شعره فى خالد، وقال له وقد أطال الإصغاء إليه: "قصرت فى الثناء عن أبى سليمان. رحمه الله، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمعترضا لمقت الله. رحم الله أبا سليمان! ما عند الله خير له مما كان فيه".

ومن الحق أن يقال أن قضية خالد وقد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر، وقد عرضت لنا هذا البطل فى صفحيته فإذا هو بطل الفؤاد فى ولايته وبعد عزله، وفى شدته على عدوه وطاعته لأميره.. وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل فى ميزان ابن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا تزال صاحبها راجحًا أى رجحان. وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الابقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقًا عنه والتجوز فيه.

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشأنى، وكل منتصف وجاحد، وما نخال أن تقديرنا خالدا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان فى هذه القضية من جديد

فقصارى ما نغنم من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء فى منصبه ولم يكن مستحقا لعزله، وليس ذلك بشىء إلى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان فى القضية كما نصبه خليفة الإسلام، فقد رأينا عدلا أعظم من بطولة الأبطال، فإن أخطأ البطل - على تقدير خطئه - فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء، وذلك ميزان أشرف لعمر والخالد وللإسلام من كل ميزان.

* * *